المطلب الأول

طلب الفداء

obeikandl.com

obeikandl.com

المطلب الأول

طلب الفداء

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (سورة المائدة: ٣٦-٣٧).

يا للخسة والمهانة فبعد أن كانت لهم في الدنيا الأموال الطائلة التي خولها الله لهم وأبوا أن ينفقوها في سبيل الله ها هم اليوم لا يريدون أن يفتدوا بأموالهم فقط بل إنهم يريدون أن يفتدوا بما في الأرض جميعًا ومثله معه وكانوا أحوج إلى القليل من ذلك لينفقوه في طاعة الله عزَّ وجلَّ، فأين أموال الأغنياء وأين جاه وسلطان المتكبرين المتجبرين؟.

أين أموال من كانت: ﴿ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ (سورة القصص: ٧٦). أين أمواله وعلمه ومكانته هل أغنت عنه من عذاب الله من شيء؟!.

أين أموال أم جميل بنت حرب التي كانت تعيِّر رسول الله ﷺ بفقره وتتطاول عليه بأموالها وكنوزها هل نفعتها تلك الأموال وهذه الكنوز؟!

أين أموال وأولاد أبي لهب؟! الذي ظن أن ماله وولده سينجيه من العذاب وكان يعيِّر رسول الله ﷺ بقلة الولد، وظل يردد في قريش صار محمد أبتر ـ لما مات ابنه ﷺ ـ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (سورة الكوثر: ٣)، وكان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقًا ـ من العذاب لمن كفر وصد عن سبيل الله ـ فإني افتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي. فهل هم مغنون عنه من عذاب الله من شيء؟!

﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ (سورة المعارج: ١١-١٤).

أين أموال العاص بن وائل الذي أخذ أموال خباب بن الأرت رضي الله عنه، فلما طلبها خباب من العاص قال له: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقال الخباب: لا أكفر حتى تموت ثم تبعث، فقال العاص: دعني أموت وأبعث فسأوتى مالاً وولداً فأقضيك! فنزلت فيه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (سورة مريم: ٧٧-٨٠)، فهل نفعته أمواله وأولاده من الله شيئاً حينما وقف بين يدي الله ذليلاً فردًا؟

بل أين مُلك فرعون وجناته وعيونه الذي كان ينادي في قومه: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (سورة الزخرف: ٥١)، فهل نفعه ملكه وجناته وعيونه؟ وهل أغنت عنه من عذاب الله من شيء؟

فكيف بهم وقد اسودت وجوههم أشد سوادًا من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم ويطئون حسك الحديد بأحداقهم فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم، وهذا هو بعض جملة أحوالهم!!.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به ويتقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه بل لا مندوحة ولا محيص له ولا مناص ولهذا قال: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: موجع.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ (سورة الحج: ٢٢). فلا يزالون يريدون أن يخرجوا مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك وكلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: يا بن آدم كيف وجدت مضجعك من النار؟ فيقول: شر مضجع! فيقال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهبًا؟ فيقول: نعم يارب! فيقول الله تعالى: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيُؤمر به إلى النار»**[٢].

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور: «وأصل الكلام: لو أن لهم ما في الأرض ليفتدوا به ومعه مثله..... دل على تعجيل اليأس من الافتداء إليهم ولو بمضاعفة ما في الأرض»[٣].

إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض: هو أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعًا، ولكن السياق يفترض لهم ما فوق الخيال في عالم الافتراض فيفرض أن لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه، ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص٥٥).
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) «التحرير والتنوير» (جـ٦، ص١٨٩).

وذلك لينجوا به من عذاب يوم القيامة، ويرسم مشهدهم وهم يحاولون الخروج من النار ثم عجزهم عن بلوغ الهدف وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم.

إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات . . . منظرهم ومعهم ما في الأرض ومثله معه . . . ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به. ومنظرهم وهم مخيبوا الطلب غير مقبولي الرجاء . . . ومنظرهم وهم يدخلون النار . . . ومنظرهم وهم يحاولون الخروج منها . . . ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء . . . ويسدل الستار ويتركهم مقيمين هناك[1]!

(١) «الظلال» (جـ٢، ص٨٨٢).

obeikandl.com

قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (سورة الرعد: ١٨).

قال القرطبي: قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ أي: لم يجيبوا إلى الإيمان به، ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أي: من الأموال، ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ ملك لهم. ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة، ونظير ذلك في آل عمران: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ (سورة آل عمران: ١٠).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ﴾ (سورة آل عمران: ٩١).

قال القرطبي: ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي: مسكنهم ومقامهم، ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أي: الفراش الذي مهدوا لأنفسهم[1].

قال ابن كثير: في قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أي: من مات فلن يُقبل منه خير أبدًا ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبًا لو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبًا بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها[2].

---

(١) «تفسير القرطبي» (جـ٥، ص٢٠١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ١، ص٢٨٠).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (سورة آل عمران: ١٠).

يخبر الله تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (سورة غافر: ٥٢). وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ولا ينجيهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (سورة التوبة: ٥٥)، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٦-١٩٧).

وقال ها هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه.

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي: حطبها الذي تسجر به وتوقد به كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٨) [(١)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾:

قال سيد قطب: والأموال والأولاد مظنة حماية ووقاية ولكنهما لا يغنيان شيئا في ذلك اليوم الذي لا ريب فيه لأنه لا خلاف لميعاد الله وهم فيه ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ .. بهذا التعبير الذي يسلبهم كل خصائص الإنسان ومميزاته ويصورهم في صورة الحطب والخشب وساء... ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ لا! بل إن الأموال والأولاد ومعهما الجاه والسلطان لا تغني شيئا في الدنيا [(٢)].

---

(١) «ابن كثير» تفسير (جـ١، ص ٣٤٩).

(٢) «في ظلال القرآن الكريم» (جـ١، ص٣٧٢)

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٤٧-٤٨).

أي: ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه﴿ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ ﴾ أي: الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهبًا.

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم. ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا به يستهزئون[1].

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ إنه الهول الملفوف في ثنايا التعبير الرهيب. فلو أن لهؤلاء الظالمين ـ الظالمين بشركهم وهو الظلم العظيم ـ لو أن لهؤلاء ﴿ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ مما يحرصون عليه وينأون عن الاسلام اعتزازًا به. ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة.

وهول آخر يتضمنه التعبير الملفوف: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ ولا يفصح عما بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه. لا يفصح عنه ولكنه هكذا هائل مذهل مخيف . . . فهو الله، الله الذي يبدو منه لهؤلاء الضعاف مالا يتوقعون! هكذا بلا تعريف ولا تحديد!.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص٥٧)

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهذه كذلك تزيد الموقف سوءًا. حين يتكشف لهم قبح ما فعلوا، وحين يحيط بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير وهم في ذلك الموقف الأليم الرعيب[1].

فأين الظالمون في الدنيا المستهزئون بعباد الله الصالحين؟ أين حمزة البسيوني الذي تجرأ على الله وكان يقول للدعاة الصالحين ـ حينما كانوا يخوفونه بالله من شدة تعذيبه لهم ـ: ائتوني بربكم أضعه في الحديد؟! بل أين الذين كانوا يستهزئون بالأنبياء والرسل ويتخذونهم سخريًا؟! فهل بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون؟ وهل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعد والوعيد؟ نعم! بل بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ولا يتوقعون!!!.

هذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كُورت، والجبال قد سُيرت، والعشار قد عُطلت، والوحوش قد حُشرت، والبحار قد سُجرت. قد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لنقف على كثرة معانيها: تُوضع الموازين وتُنشر الدواوين وبُرزت الجحيم وأُغلي الحميم وزفرت النار ويئس الكفار وسُعرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان؛ فيومئذ: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ (سورة المعارج: ١١-١٤). أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**يعرف بعضهم بعضًا ويتعارفون بينهم ثم يعز بعضهم عن بعض بعد ذلك**».

---

(١) سيد قطب: «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص٣٠٥٦)

يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (سورة عبس:٣٧)، وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (سورة لقمان:٣٣)، وكقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (سورة فاطر:١٨)، وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (سورة المؤمنون:١٠١)، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (سورة عبس: ٣٤-٣٧).

يقول سيد قطب: إن الناس في همٍّ شاغل لا يدع لأحد منهم أن يلتفت خارج نفسه ولا يجد فسحه في شعوره لغيره: ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ (سورة المعارج:١٠)، فلقد قطع الهول المروع جميع الوشائج وحبس النفوس على همها لا تتعداه . . . وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ (سورة المعارج:١١)، كأنما عمدًا وقصدًا! ولكن لكل منهم همه ولكل ضمير منهم شغله، فلا يهجس في خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله ولا أن يسأله عونه فالكرب يلف الجميع والهول يغشى الجميع فما بال ﴿الْمُجْرِمُ﴾ (سورة المعارج:١١). إن الهول ليأخذ بحسه وإن الرعب ليذهب بنفسه وإنه ليود لو يفتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ممن كان يفتديهم بنفسه في الحياة ويناضل عنهم ويعيش لهم . . . ببنيه، وزوجه، وأخيه، وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه. بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعًا ثم ينجيه . . وهي صورة للَّهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات! صورة مبطنة بالهول معمورة بالكرب موشاة بالفزع ترتسم من خلال التعبير القرآني الموحى[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٦، ص٣٦٩٧).

وبينما المجرم في هذه الحال يتمنى ذلك المحال يسمع ما ييئس ويقنط من كل بارقة أمل أو كل حديث خادع من النفس كما يسمع الملأ جميعًا حقيقة الموقف وما يجري فيه.

﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (سورة الحديد:١٥) أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه.

وقوله تعالى: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: هي مصيركم وإليها متقلبكم، ﴿هِيَ مَوْلاكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير[1].

لقد كنتم في الدنيا في سعة من العيش منهمكين في الشهوات متمتعين بها متمكنين منها لترامي طباعهم إليها فأعقبهم ما في جبلاتهم من الإخلاد إلى الترف، وعدم الاعتبار والاتعاظ في الدنيا والتكبر على الدعاة إلى الله، وفي الآخرة شدة الألم لرقة أجسامهم المهيئة للترف بتعودها الراحة بإخلادها إليها وتعويلها عليها[2].

فيا أخي . . لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربك، ولا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم، ولا تبت وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور.

أخي . . إن الموتى لم يبكوا من الموت، ولكنهم يبكون من حسرة الفوت، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها، ودخلوا دارًا لم يتزودوا لها، فأي ساعة مرت على من مضى وأي ساعة بقيت علينا؟

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص٣١٠).
(٢) «نظم الدرر» (جـ١٩، ص ٢١٣).

أخي . . إن الآمـال تطوى، والأعمـار تفنى، والأبدان تحت التـراب تبلى، وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البـريد، ويقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، وفي ذلك ما يلهي عن الشهوات، ويسلي عن اللذات، ويرغب في الباقيات الصالحات.

أخي . . اعمل مـا وجدت سبيـلاً للعمل، وما دمت في فـسحة ومهل، ومـهد المضطجع، ووطئ لذلك المصرع:

فـيـا هذا سـتـرحل عن قـريب ■★■ إلى قـوم كـلامـهم السكوت[1]

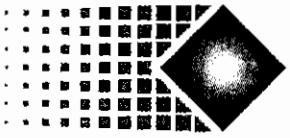

(١) «الجزاء من جنس العمل» (جـ٢، ص:٤٢٩).

obeikandl.com